

أضواء على المصطلح النقدي

العربي

عبد الكريم درويش

في كتابه «المرايا المحدّبة: من البنيوية إلى التفكيك»، يذهب الدكتور «عبد العزيز حمودة»، إلى أنّ المصطلحات النقدية المعاصرة التي أفرزتها الحداثة الغربية وما بعدها، في تجلياتها المتعددة في المدارس النقدية الحديثة من نقد جديد وبنيوية وتفكيك ومن مدرستي التخاطب والاتصال، تثير أزمة عند متلقي وقراء الحداثة الغربية ذاتها، ويضرب مثلاً على ذلك تعليق أستاذ الشعر والنقد «جودسون» على بحث «جاك دريدا» في مؤتمر جون هوبكنز / ١٩٦٦ / - وقد اعتبر في حينه «مانفستو» التفكيكية - الذي جاء فيه: «إن بحث دريدا يقنع القراء بأنهم لا يعرفون لغتهم، وأكثر من ذلك، فكرهم. يجب أن تتم دراسة للغات النقد قبل أن يصبح لأي شيء نقوله حول الأدب معنى»^(١).

وإذا كانت هناك أزمة مصطلح نقدي بهذه الخطورة بالنسبة للمتلقي الغربي أو الأميركي من داخل الإطار المعرفي والمزاج الثقافي، اللذين أفرزا هذا الفكر وتلك المذاهب النقدية، فلا بد أن أزمة المصطلح النقدي بالنسبة للمتلقي العربي من خارج ذلك الإطار المعرفي والمزاج الثقافي تصبح أزمة مركبة وأكثر حدّة وخطورة. فالمصطلح النقدي الذي لا يشير إلى دلالات معرفية محددة، بل يحدث ارتباكاً وارتجاجاً داخل الواقع الثقافي الذي ارتبط به، حريّ بأن يحدث فوضى واضطراباً في الدلالات المعرفية عندنا، نحن العرب

أصحاب الأطر الثقافية والقيم المعرفية المغايرة والمختلفة تماماً. فحينما ننقل، نحن الحداثيون العرب، المصطلح النقدي الجديد في عزلة عن خلفيته الفكرية والفلسفية، فإنه يفرغ من دلالاته ومضامينه ويفقد القدرة على أن يحدد معنى. وإذا نقلناه بضميرته الفلسفية وجدائله المعرفية أدى إلى الفوضى والإهتزاز، يقول د. عبد العزيز حمودة: «إذ أن القيم المعرفية القادمة مع المصطلح تختلف، بل تتعارض أحياناً، مع القيم المعرفية التي طورها الفكر العربي المختلف، وأصبح نشاطنا الفكري في البنيوية والتفكيك ضرباً من العبث أو درساً في الفوضى الثقافية، وكلاهما نوع من الترف الفكري الذي لا يتقبله واقعنا الثقافي».^(٢)

وإذا كنا نتفق وصاحب هذا الكتاب القيم والثري بشروحاته وانتقاداته الذكية، والغني بالتقاط المفارقات الساخرة اللامحة، إلا أننا سنركز على الذين هم على الضفة الأخرى من نقده، الذين نحن الآن مقبلون على قراءتهم، بمعنى أولئك الباحثين الذين اجتهدوا بعد عناء بحث واستقصاء تاريخيين وبأمانة علمية، فكان لهم أجران لا أجر واحد. فالحديث بالإطلاق والتعميم يضعنا أمام لوحة سوداوية متشائمة ومشهد ثقافي عربي بائس وضل، مما يُبخس هؤلاء حقهم بعد أن أثبتوا قدرتهم في نحت المصطلح النقدي وتبيئته بما يتلاءم وواقعنا العربي. فقد تمّ لديهم عزل المصطلح النقدي الذي استخدموه عن دلالاته المعرفية والثقافية، وتمت تنقيته من شوائب وبرائن واقعه الغربي ليصبح قالباً كانطياً فارغاً، يتم ملؤه ومن ثم توظيفه بما ينسجم ويتناغم والواقع العربي المختلف فعلاً. ولكن، قبل أن نستعرض أبحاثهم سنقوم بتعريف المصطلح النقدي.

ما هو المصطلح ؟

يقصد بالمصطلح كلمة أو مجموعة من الكلمات، تتجاوز دلالتها اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصورات فكرية وتسميتها في إطار معين، يقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معينة. والمصطلح، بهذا المعنى، هو الذي يستطيع الإمساك بالعناصر الموحدة للمفهوم، والتمكن من انتظامها في قالب لفظي يمتلك قوة تجميعية وتكثيفية لما قد يبدو مشتتاً في التصور.

وإذا كان للمصطلح مثل هذه القوة التجميعية والتأطيرية، فإن الإشتغال بهذه الأداة، ولا شك، سيبرز مدى قوة إدراك المشتغل بها بخطورة الإستعمال الإعتباطي لها، لأن التحكم في المصطلح هو، في النهاية، تحكم في المعرفة المراد إيصالها ومدى القدرة على ضبط أنساق هذه المعرفة، والتمكن من إبراز الإنسجام القائم بين المنهج والمصطلح، أو على الأقل إبراز العلاقة الموجودة بينهما. ولا شك أن كل إخلال بهذه القدرات سوف يخل بالقصد المنهجي والمعرفي الذي يرمي إليه مستعمل المصطلح.

ولهذا، فإن فعل المصطلح يشترط لتحقيقه أن يحافظ على العناصر المفهومية التي شكلته، وأن يتمكن من خلق تواصل متبادل بينه وبين اللغة التي ينتجها ويدفعها، وبينه وبين الموضوع الذي يريد معالجته. إن المصطلح في حاجة إلى تبين ما يجر معه من الأفكار والمفاهيم، التي يكونها عبر تشكله، من حقول معرفية متباينة.

والمصطلح بهذا المعنى لغة واصفة ذات جوهر، وليست دالة فقط. لغة ترسخ كل نشاط راغب في الاصطلاح المفهومي، على حد تعبير «غريماس». وهكذا نجد للمصطلحات أنساباً وانتماءات إلى الأصول الفلسفية أو التاريخية أو السيكلوجية أو اللسانية أو العلمية، كما يذهب «أميل بنفست». وقد نجد للمصطلح الواحد انتماءات متباينة تُثير التباساً أثناء الإشتغال به. ولهذا لا بدّ من تحديد الوجهة التي نريدها من المصطلح، وخاصة إذا كان من المصطلحات الملتبسة مثل مصطلح «الواقعية». فلهذا المصطلح استعمالات متعددة، أحصاها «خلدون الشمعة» خلال بحثه في سجلات الواقعية بما يزيد عن خمسة وعشرين مصطلحاً^(٣).

وسننظر في المصطلح إلى الطرق التي يشتغل بها في الخطاب، والكيفية التي يشغله بها منتج هذا الخطاب. وقد اعتمدنا هنا على بعض الأبحاث المنجزة في المغرب العربي، وهي الأبحاث الثلاثة:

(١) بحث د. عبد الملك مرتاض، حول: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ديسمبر ١٩٩٨^(٤).

(٢) بحث الأستاذ إدريس بللمليح، حول: الرؤية البيانية عند الجاحظ ١٩٨٤^(٥).

(٣) وبحث الأستاذ محمد الدغمومي، حول: النقد القصصي والروائي في المغرب من بداية الإستقلال إلى سنة ١٩٨٠^(٦).

لقد أجمعت الأبحاث الثلاثة المنجزة على تقديم أداتها المصطلحية قبل الإشتغال بها، مما يدل هنا على أنّ خطاب نقد النقد كان على وعي بأهمية عرض المصطلح، سواء بتعريفه أو شرحه بغية استجلاء حمولته الفكرية والمفهومية، خاصة وأن أغلب المصطلحات التي شغلتها الأبحاث مستوحاة من حقول معرفية ذات مرجعية غربية، أو أنها تحمل لبساً في حاجة إلى توضيح أو شرح أولي أساسي. ويمكن أن نمثّل لذلك ببعض ما جاء في الأبحاث الثلاثة:

هكذا يعرف خطاب د. عبد الملك مرتاض مصطلحاته بالصورة التالية:

(١) الرواية، Roman: يتفق «مرتاض» مع ما ذهب إليه «ميشال زيرافا» من أن الرواية «عالم شديد التعقيد، متناهي التركيب، متداخل الأصول. إنها جنس سردي منثور، لأنها ابنة الملحمة، والشعر الغنائي، والأدب الشفوي ذي الطبيعة السردية» (ص ٢٧). إن

الروائي يختلف عن الراوي، فهو ينقل حديثاً مسروداً، تحت شكل أدبي فني جمالي يرتدي أردية لغوية تنهض على جملة من المشكلات السرديّة «كاللغة، والشخصيات، والزّمان، والمكان، والحدث، يربط بينها طائفة من التقنيات كالسرد، والوصف والحبكة والصراع» (ص ٢٦). إن لغة هذا الجنس الحظي، والأدب السردّي «هي مادته الأولى» (ص ٢٩)، والخيال «هو الماء الكريم الذي يسقي هذه اللغة فتتمو وتربو، وتمرع وتخصب. والتقنيات لا تعدو كونها أدوات لعجن هذه اللغة المشبعة بالخيال تمّ تشكيلها على نحو معين» (ص ٢٩). وينتقد مرتاض الموسوعة العربية الميسرة لعدم تعرضها لهذه المادة، ودون أن تجشم نفسها عناء البحث في أصل هذا اللفظ، ولا في أمر اشتقاقه وتطوّر مدلوله، شأن الموسوعات الأخرى.

٢) الشخصية، «Perssonage»: «إن المصطلح الذي نستعمله نحن مقابلاً للمصطلح الغربي هو شخصية، وذلك على أساس أن المنطق الدلالي للغة العربية الشائعة بين الناس أن يكون «الشخص» هو الفرد المسجل في البلدية، والذي له حالة مدنية، والذي يولد فعلاً، ويموت حقاً. بينما إطلاق الشخصية لا يخلو من عمومية المعنى في اللغة العربية... فارتأينا تمحيضه، لدى الحديث عن السرديات، للعنصر الأدبي الذي يطفر في العمل السردّي ضمن عطاءات اللغة التي يغذوها الخيال للنهوض بالحدث، وللتكفل بدور الصراع داخل هذه اللعبة السردية العجيبة» (ص ٨٥). إن مرتاض ينتقد كل من يستخدم هذا المصطلح دون تمييز واضح بين الشخصية والشخص والبطل، أمثال (لويس عوض، شوقي ضيف، فاطمة الزهراء سعيد..) ملتقياً مع الناقد «رولان بارت» الذي يذهب إلى أن شخصيات الروائي هي كائنات من ورق، ليس إلا.

٣) المناجاة، «Le monologue interieur»: «ما المناجاة؟ ولم أطلقنا هذا اللفظ العربي القحّ على ما يشيع في الكتابات النقدية العربية المعاصرة تحت مصطلح «المونولوج الداخلي»، وهو مصطلح هجين دخيل جيء به من قول الفرنسيين على يد أديبهم الشهير (إدوار دي جران)» (ص ١٣٦). ولطالما أن «النجواء» تعني في اللغة العربية «حديث النفس ونجواها»، كما يذهب الزمخشري في أساس البلاغة، فإن مرتاض يعرف المناجاة في كتابه «تحليل الخطاب السردّي»، ويؤكد على هذا التعريف في «في نظرية الرواية» على أنها «خطاب مضمن داخل خطاب آخر يتسم حتماً بالسردية: الأول جوّاني، والثاني برّاني. ولكنهما يندمجان معاً اندماجاً تاماً.. لإضافة بعد حدثي، أو سردي، أو نفسي، إلى الخطاب الروائي» (ص ٢١١). ولتصبح المناجاة حديث الروح للروح، وحوار العقل مع العقل، وبوح الذات لنفسها، في لغة حميمية دافئة تندس بين السارد والشخصيات الروائية، وتمثل السكينة وتبعث الطمأنينة والأمن الذاتي.

٤) **الحَيِّزُ**، « Espace »: إن مرتاض يؤثر مصطلح «الحَيِّز» الثري على «الفضاء» الشحيح الذي يشيع في الكتابات الأدبية النقدية العربية المعاصرة: [إن مصطلح «الفضاء»، من منظورنا على الأقل، قاصر بالقياس إلى الحَيِّز، لأن الفضاء من الضرورة أن يكون معناه جارياً في الخواء والفراغ، بينما الحَيِّز لدينا ينصرف استعماله إلى النتوء، والوزن، والثقل، والحجم، والشكل.. على حين أن المكان نريد أن نقفه، في العمل الروائي، على مفهوم الحَيِّز الجغرافي وحده] (ص ١٤١). وينتقد مرتاض تلك الترجمة الشائعة لكتاب «غاستون باشلار» بـ «جماليات المكان» كشكل من أشكال إساءة ترجمة هذا المصطلح الشائع، فهي - برأيه - ترجمة غير سليمة يجب أن تصبح «جماليات الحَيِّز».

٥) **المهذاة**، « La fable »: قياساً على المأساة، والملهاة، والمشجاة، وهي مصطلحات غدت مألوفة في لغة النقد والميتانقد: [إن المصطلح الوارد في لفظ واحد كان يترجم بجملة مؤلفة من أربعة ألفاظ، كما في قول المترجمين «الحكاية على لسان الحيوانات» ترجمة لمصطلح « fable » الذي ترجمناه نحن تحت مصطلح المهذاة] (ص ٣٢٠). وكان هذا المصطلح قد ترجم عن الناقد «رولان بارت» في مجلة «آفاق» ١٩٨٨ عدد ٩-٩ / بـ «الحكاية على لسان الحيوانات».

هذه بعض نماذج من تقديم خطاب «مرتاض» للمصطلح. وهي تدل على مدى وعيه بأهمية تقديم المصطلح. غير أننا نلاحظ أن «مرتاض» لا يريد أن يتوقف طويلاً عند المصطلح، فتارة يقدم المصطلح بتعريف كامل، وتارة يقدم جزءاً منه ويحيل على مصدره / (الشعرانية، لسانياتي) /، وأحياناً يختزل التعريف كما تبين النصوص الدالة على ذلك، بل إنه كان يعرف المصطلح أحياناً في الهامش (هامش رقم ٣، ص ٣١٣، هامش رقم ٢٥ ص ٣٢٠)، أو يقدّم جزءاً منه في المتن ثم يكمله في الهامش. قد يفهم من هذا أن المصطلح عند الباحث لم يكن موضوعاً وإنما أداة فقط. وإذا كنا نرى أن للباحث سلطته التقديرية التي يتوقف بها عند المصطلح بصورة متعددة، إلا أنه بإمكاننا أن نتساءل: متى يجب أن نقف عند المصطلح لنقدمه ونوضحه، ومتى يجب أن نقفز عليه ونختصره؟ إن لهذه المسألة علاقة بالقارئ، وبنوع المصطلح المقدم حسب قوة تداوله أو ضعف تداوله. كما أن لهذه المسألة علاقة بمدى تمكن مستعمل المصطلح والمصطلح والقصد المنهجي منه. ونستطيع أن نوجز هنا صيغ تقديم المصطلح عند «مرتاض» كما يلي:

- ١) صيغة التعريف الشامل، الذي يجمع فيه كل العناصر المكوّنة للمصطلح. ويظهر في هذه الصيغة أن الخطاب كان يدرك أهمية المصطلح المقدم ويبني على إلحاح منهجي.
- ٢) صيغة التعريف الجزئي والإحالة على مصدره، أو الإحالة إلى الهامش من أجل إكمال التعريف بالمصطلح، أو تعريفه كلية في الهامش.

٣) صيغة لا يقدم فيها التعريف، وإنما يكتفي فيها بذكر المرجع الذي أخذ منه (غريماس، رولان بارت، ميشال زيرافا..).

لا شك أن الباحث له ما يبرر أيضاً مثل هذا التعامل مع المصطلح بصيغ مختلفة: من ذلك، فهو يفترض قارئاً متخصصاً - نموذجياً - يساهم معه في إنتاج خطابه، إلا أن في هذه الصيغ المختلفة ما يفرض تساؤلاً من صميم المصطلح، هو: هل كان «مرتاض» يقصد فعلاً إلى توضيح وتعريف أدواته المصطلحية، أم أن المصطلح هنا كان ذريعة ووسيلة فقط؟ نظن أن «مرتاض» كان يتنازعه أمران أن يدقق أدواته ويوضحها في المتن، أو يندفع في تحليله وانسياب كتابته، ويظهر أن «مرتاض» كان ينجر إلى التحليل والوصف لموضوعه. فكان المصطلح يعكر عليه هذه العملية التحليلية في الأساس في الوقت الذي كان يدرك أهمية المصطلح. ولهذا وجدناه يتردد في صيغ تقديمه للمصطلح بين تلك الصيغ المذكورة، ولهذا كانت ممارسة التحليل والكتابة - أقوى من الانتصار للمصطلح. ومع ذلك فداخل هذا الانجذاب الذي يعبر عنه خطاب مرتاض، يمكن أن نبحت عن أهمية تقديم المصطلح. ومن خصائص مراحل التأسيس دائماً هذا النوع من القلق الإيجابي في الكتابة وعدم الاستقرار الذي يسعى إلى خرق قوانين الكتابة التقليدية.

ونجد بحث الاستاذ / ادريس بللمليح / يدرك بدوره أهمية المصطلح، فيقدم مصطلحه، كما د. عبد الملك مرتاض، قبل الاشتغال به. وللتعريف على صيغ تقديمه للمصطلح، نمثل لذلك ببعض ما جاء في بحثه:

١) **رؤية العالم:** [إن أصل المصطلح غربي، استعمل لدى كتاب كثيرين في أوروبا، ولكن الاستعمال المثمر الذي جعل منه وسيلة من وسائل البحث الموضوعية في مجال النقد الأدبي، يرجع إلى جورج لوكاتش (الذي استخدمه استخداماً علمياً في العديد من أعماله، ثم مضى به لوسيان غولدمان إلى الحد الأبعد من الاستعمال). والمصطلح يعني في دلالته عند هذين الناقلين رؤية العالم، أي تصوراً معيناً للإنسان والطبيعة والوجود، يستطيع أن يحققه ويعبر عنه في أعماله مفكر أو أديب أو شاعر أو فيلسوف بمفرده، تبعاً لشرط شخصية واجتماعية تعود في التفسير الأخير إلى اعتبار هذا الفرد عبقرية فذة، عرفها تاريخ أمة من الأمم، واعتبار رؤية العالم وعياً جماعياً عبرت عنه هذه العبقرية في شكل من الأشكال الفكرية أو الأدبية] (ص ١١).

ويوضح مصطلحه بصورة أوضح قائلاً: [ولهذا، فإن رؤية العالم بنية، إنها كل متناسق منتظم، يتكون من عناصر مستقلة ومتكاملة في آن واحد، ومستقلة باعتبارها أجزاء ذات ووظائف مختلفة داخل البنية، ومتكاملة باعتبار الوحدة التي تنتظم العناصر داخلها.

يجب، أولاً، أن نبحث في الأعمال الأدبية عن عناصر الرؤية المستقلة بعضها عن بعض استقلالاً ذاتياً، ثم أن نكشف، ثانياً، عن تكاملها، أي جماعها الذي لا تستطيع بدونه أن تكتسب قيمة ما بالنسبة للرؤية] (ص ١٢ - ١٣).

٢) البنية: يقول «إميل بنفنست»: [هذا ما نعنيه مبدئياً بكلمة بنية: هي أنماط خاصة من علاقات تربط بين وحدات من مستوى معين، كل واحدة من نظام ما تعرف إذن بجماع العلاقات الذي تدعمه مع الوحدات الأخرى، والتقابلات التي تندرج تحتها. إنها كيان مترابط ومتقابل، كما قال سوسير] (ص ١٣). وهذا التعريف نفسه تقريباً، نجده في قول «كلود ليفي سترأوس»: [تتسم البنية بطابع المنظومة، فهي تتألف من عناصر يستتبع تغيير أحدها تغيير العناصر الأخرى] (ص ١٣).

٣) السيمياء: حاول الباحث أن يقدم مصطلح السيمياء كمبحث علمي جديد في الدراسات الأدبية الغربية المعاصرة، وقد حاول أن يلتقط تكون هذا المصطلح، من خلال المفاهيم التي اعترته عبر تشكله من «بيرس» إلى «سوسير» ثم «بيسنز» و «بريتو» و «مونان»، حتى «بارت». وفي هذا العرض التاريخي المقتضب المركز لتطور هذا المصطلح: السيمياء، ينتهي إلى التمييز في داخله بين اتجاهين قائلًا: [ونستخلص تبعاً لهذا أن السيمياء المعاصرة تسير في اتجاهين مختلفين: الأول، يبحث في إطار العلامات، ويدرس أنظمتها المختلفة وهو سيمياء الدلالة، والثاني، يبحث في إطار الإشارات فيبين أنساقها وقوانينها، وهو سيمياء التواصل]. ويلخص بريتنو ذلك قائلًا: [إن السيمياء - بحسب بيسنز - يجب أن تهتم بالوقائع المدركة والمرتبطة بأوضاع شعورية، أنتجت عمداً كي تعمل على معرفة أوضاع الشعور هاته. وكي يعلم الشاهد غايتها: سينحصر موضوعها، إذن، في الوقائع التي ندعوها إشارات على عكس بارت الذي يوسع مجال الدراسة، ليشمل كل الوقائع الدالة، مدرجاً - تبعاً لهذا - وقائع كاللباس مثلاً، الذي يتركه بيسنز عمداً خارج نطاق البحث. إن التمييز، الذي يبرز الكاتبان المذكوران أهميته بغلو، بين التواصل الحقيقي والمظهر العادي، أو بين التواصل والدلالة، يمكنه أن يزودنا أيضاً بمفتاح الفرق الذي يفصل بين المنحيين اللذين يمثلانها. إن كان التواصل هو الذي يكون موضوع السيمياء بالنسبة لبيسنز، وبالنسبة لبارت، فإن الدلالة هي التي تكون ذلك] (ص ١١٩).

كما يقدم الباحث بلمليح بعض مصطلحات الجاحظ مثلما جاءت في كتاب هذا الأخير، ليجت من خلال ذلك التقديم ما يجمعها والمصطلحات السيميائية المعاصرة. وهكذا قدم مصطلحات مثل:

- النسبة: (وهي الحالة الدالة من غير نطق، أي أنها إشارة صامتة ومعبرة عن مكنونها بمظهرها الخارجي الذي يفضي إلى باطنها، ويحث المتأمل على استكناها واستبطانها،

يقول [الجاحظ] «وأما النصفة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد» ص ١٢٠. كما يقدم مصطلحات للجاحظ مثل: الإشارة والعقد والخط واللفظ. وفعل الشيء نفسه في مصطلحات بلاغية كثيرة، بحثاً عن دلالتها الموحية وعرضها أمام القارئ ليتبين ما تحمله هذه المصطلحات من دلالات تبرر المنهج المرصودة لخدمته.

وبالنظر إلى المصطلح، كما عرض في خطاب بلمليح، فإننا نجد أنه قد اتخذ صيغاً مختلفة لتقديمه، ونجمل هذه الصيغ في الصورة التالية:

(١) تقديم المصطلح، كما جاء في أصوله الأولى، غربية أو عربية، من خلال عرض نصوص موثقة دالة على ذلك. وتعتمد هذه الصيغة انتقاء نص أو جملة من النصوص التي تعبر عن مفهوم المصطلح بشكل مركز. ويحيل الباحث هنا على المصدر الذي أخذ عنه المصطلح، كما يؤكد الخطاب على تبني الباحث للتعريف كله أو جزء منه من خلال التصريح بذلك، أو من خلال الإشتغال به في الخطاب.

(٢) كل مصطلحات بلمليح جاءت مقدمة ومعروضة في المتن، بحيث لم يعتمد على الهامش إلا في الإشارة إلى المراجع والمصادر. ويعبر هذا عن مركزية اهتمام الباحث بمصطلحه، إذ هو يسعى جاهداً إلى استيفاء غرضه ضمن مركزية خطابه. بل إنه كان يورد تعريفات مختلفة لمصطلح واحد، بحثاً عن بعض أوجه التي قد يجدها في مصطلحات الجاحظ. أي أن تعريف المصطلح كان محكوماً بالقصد المنهجي عند الباحث.

(٣) اعتمد الباحث في تقديم مصطلحه أيضاً على استعراض مراحل تكوّن المصطلح، كما فعل في مصطلح السيمياء. ولعل هذه الصيغة من أهم الصيغ التي يمكن التركيز عليها في البحث العلمي الأدبي العربي المعاصر، لأن كثيراً من المصطلحات قد اكتسبت حمولتها الفكرية والمفهومية عبر تشكلها في الزمان والمكان والثقافة المغايرة لبعدها التاريخي والحضاري. إن تقديم المصطلح تقديماً تكوينياً، يوقف الباحث والقارئ العربيين على تضاريس المصطلح ويجعلهما يدركان استيعابه في حقله العربي المعرفي، وما هي الإمكانيات التي يتيحها مساره التكويني ليشغل بصورة طبيعية وإيجابية في خطابنا العربي - نقد النقد هنا مثلاً. وهنا لا بد من ملاحظة أن الباحث حينما يعتمد على هذه الطريقة في بعض مصطلحاته، لا بد أن يخلص إلى الجانب الذي يريد أن يشغل به المصطلح في خطاب نقد النقد العربي، حتى لا يبقى العرض التاريخي للمصطلح مجرد استعراض للمعرفة دون ضبط الغاية المنهجية منها.

(٤) حاول الباحث أن يقدم المصطلح الأجنبي والمصطلح العربي في الوقت نفسه (وهذا ما فعله د. عبد الملك مرتاض)، ولعل الجمع بين هذا التقديم راجع إلى موضوع البحث أولاً، وإلى القصد المنهجي في البحث، فالمنهج يسعى إلى إثبات أو إثارة مدى صلاحية

الإشتغال بالمصطلح الأجنبي في خطاب نقد النقد العربي القديم - خطاب الجاحظ، وإلى التنبيه إلى أن في مصطلحات الجاحظ المختلفة مؤشرات للبحث السيميائي واللساني المعاصرين.

ولعل ما يفيد البحث الأدبي العربي المعاصر من تقديم للمصطلح، مثل تقديم بلمليح، هو الجانب المنهجي والمعرفي. منهجياً يؤكد البحث على أنه يمكن أن نتعامل مع النص العربي القديم، من أجل استيعابه أكثر كلما ابتعدنا عنه. أي أن المناهج المعاصرة مثل: البنيوية التكوينية، والدرس السيميائي واللساني، تتيح لنا امكانيات جديدة لفهم اللغة العربية القديمة، بمحملها الإشاري والرمزي والأسطوري والبلاغي في علاقتها مع العالم الذي كانت تبنيه أو تتخيله، والقيم التي كانت حارسة أمينة لها. إن المنهج المتبع في البحث يفتح آفاقاً جديدة للنص العربي أكثر مما تفعل المناهج التقليدية. وبدون إدراك هذا العنصر الحدائي الذي تتيحه الثقافة العلمية الواعية، لا يمكن للنص العربي - لغة وزماناً وإنساناً - أن يدخل باب الحداثة.

يمكننا أن نقول عن بحث «الدغمومي» بأنه من الأبحاث التي تجعل من المصطلح موضوعاً وأداة في الوقت نفسه. فقد وصف اللغة الاصطلاحية وتطرق إلى أهمية المصطلح وخطورته، بل خصص قسماً من بحثه لذلك. كل هذا يدل أيضاً على وعي جاد بالمصطلح ودوره في تخصص الخطاب وخدمة المنهج. فهو يلجأ إلى تقديم مصطلحاته بتعريفها وشرحها باقتضاب تارة، وبإسهاب تارة أخرى. كما أنه يستعين بالهامش إذا ظهر له أن بعض المصطلحات بحاجة إلى توضيح أكثر. ومن ثم كانت عملية تقديم المصطلح عند الباحث تقوم على تقليب المصطلح على عدة أوجه ليتأكد من أنه قد أوضح مادته الاصطلاحية. وجاء بحثه بذلك بحثاً في المصطلح وبالمصطلح، وتنوعت مصطلحاته وكثرت بتعدد المناهج المتبعة في البحث. وسنقتصر على نماذج من تقديمه للمصطلح كما جاءت في خطابه:

١) **الخطاب:** [غير أن مفهوم الخطاب يأتي ليحتوي مفهوم النص ويضعه في دائرة أوسع، فلا يعزله عن شروط تلفظه وتداوله في مجال حيوي نشيط، ومعنى ذلك أن استعمالنا لمفهوم الخطاب والنص لا يأتي، أو لا ينبغي أن يأتي، بمعنى واحد، بل بفارق تصوري واضح. ويمكن نتيجة لذلك توضيح مفهوم الخطاب بكونه تشكيلاً (Formation) [ينتظم داخل نظامين (orders): نظام لساني ونظام دلالي - براغماتي (Semantico-Pragmatique)].

ويمكن شرح ذلك بأن «الملفوظ» النصّ نتيجة مباشرة لنظام لساني يعمل فيه نظام آخر يتحدد كمؤسسات «الأدب»، «المعرفة»، «النقد»، ونتيجة ذلك تولد أشكال من

«الخطاب» وفق تفاعل النظامين عبر حضور تأثير جانب معين من تلك المؤسسات، يمتلك الخطاب خصوصيته، وكل ذلك يجري داخل شروط التواصل. إن الخطاب عند التحليل يتطلب معالجة مجموعة «أنظمة» تنشط في الخطاب وتحدد فاعليته إزاء نفسه وإزاء السياق (الظرفي) الذي يعمل فيه. ومن خلال ذلك يكتسب حضوره وفاعليته ومعناه]. إن كل طرف من هذه الأنظمة يحتاج الى شرح. [وأي شرح يتطلب بناء لغة واصفة تسمي كافة العناصر والعلاقات التي يقوم عليها كل نظام] (ص ٧-٨).

ويقول عن الخطاب أيضاً: [إن الخطاب بهذا المعنى - كما يتصوره غريماس - قصة لها بداية ولها نهاية، أي حركة بين حالة ابتدائية وحالة نهائية - يعبر الخطاب بينهما باستعمال قدراته، التي تبدو مجموعة أفعال تريد تحقيق المعرفة أو تصحيحها أو التساؤل عنها، مما يكسب الخطاب «منطقاً» سردياً.

٢) الخطاب النقدي: [وبناء على ما سبق، نرى أن العناصر الأساسية في تحديد الخطاب النقدي كمفهوم يمكن صياغتها على النحو التالي: إن النقد ليس سوى خطابات، لها خصوصية نابعة من اشتغال أفعال الخطاب على موضوع أدبي، مما يكسب هذه الخطابات بعداً ما ورائياً أي كعمل باللغة على موضوع مجسم لغوياً، وهو بتلك الخصوصية، ومن خلالها يعمل داخل مجال الثقافة والمعرفة كفعالية مرتبطة بالسياق السوسيوثقافي. واختصاراً، نقصر على هذا التحديد الموجز: إن النقد خطاب ما ورائي، يشغل علاقة بموضوع أدبي ويرتبط به بصورة ملائمة، عبر مجموعة من الآليات التي تخدم الموضوع، أو الأحكام المرتبطة بالموضوع ذاته، أو بمجاله الخاص] (ص ٨).

٣) آلية الاحتجاج: [هذه الآلية التي تهدف الى جعل العلاقة بين الناقد والقارئ علاقة اقناع وحوار، عادة ما تعتمد على جملة من الأفعال، مثل الاستدلال والتعليل، والاقتناس والاستشهاد والمقارنة والتمثيل والتقسيم والبرمجة، حتى يحاصر المتلقي، فيحدث لديه الاقتناع أو يقبل الدخول في عملية تلقي الخطاب والمساهمة في إنتاجه] (ص ١٢).

ويشرح هذا المصطلح أكثر في الهامش بقوله:

[نقصد بالحجاجية ما يذهب اليه عدد من الباحثين في مجال الخطاب الاقناعي، والذين يسمون مجموعة الآليات التي يهدف بها صاحب الخطاب الى التأثير في السامع أو القارئ، بالاقناع العقلي، أو الإمتاع العاطفي من أجل إحداث فعل من الأفعال وتحقيق المقصد من إنجاز الخطاب] (ص ٢٢).

٤) اللغة الواصفة: يعرفها الباحث في الهامش قائلاً: [نقصد باللغة الواصفة مجموعة الألفاظ الاصطلاحية الحاملة لمفاهيم، تمكن الناقد من الحديث عن «موضوعه» والذي هو مظهر لفظي بدوره]. فهي إذن لغة [ليست فقط لغة دالة، بل هي لغة ذات جوهر، إنها

ترسخ كل نشاط راغب في الاصطلاح المفهومي] (هامش ٥، ص ٢٠).
٥) السياق: يعرفه في الهامش أيضاً: [نقصد بالسياق مجال التلفظ الثقافي والاجتماعي، والذي يشرحه «أوسفالد ديكر» بالتفريق بين السياق والحوار، ويرى أن السياق هو مجموعة الظروف أو الوسط حيث يجري فعل التلفظ (سواء أكان مكتوباً أو منطوقاً).] وينبغي أن نفهم من هذا في الوقت نفسه أن السياق يشمل المحيط المادي والاجتماعي، الذي وقع فيه الفعل، وأيضاً الصورة التي لدى المتكلمين والهوية التي لديهم، والفكرة التي يضعها كل واحد عن الآخر، [«بما في ذلك الصورة التي يملكها لنفسه بالنظر الى ما يظنه الشخص الآخر»]. وأيضاً الأحداث التي سبقت فعل التلفظ، وبصفة خاصة العلاقات التي كانت بين المتكلمين، وخاصة تبادل الكلام الذي يندرج ضمن فعل التلفظ القائم] (هامش ٨، ص ٢٠).

ويمكن أن نجد مثل هذا التقديم للمصطلح في الهامش، مثل الحوارية، عرضه في هامش ١١ من ص ٢١، وكذلك مصطلح: التنميط، قدمه في هامش ١٤ من ص ٢١. وقدم تعريفه للايديولوجيا في هامش ١٧ من ص ٢٣. ويمكن لعملية إحصائية ان تبرز كثافة المصطلح وتنوعه في خطاب الدغمومي، وليس بإمكاننا أن نحيط بها جميعها، وما أوردناه فقط للدلالة على الصورة التي قدم بها مصطلحه. وبالنظر إلى الصيغ التي قدم بها مصطلحه، فإننا نجد أنه، بالإضافة الى اعتماد الصيغ التي وجدناها عند بلمليخ، حاول أن يتقصى العناصر المكونة للمصطلح. وخير مثال على ذلك، ما قدم به مصطلح «السياق الثقافي». فقد حاول تقسيمه الى عناصر متعددة، أملاً في أن يمسك بأجزائه الصغرى المكونة له، شأن محلل الخطاب، الذي يبحث عن النظام المؤسس للمصطلح. ومن ثم جاء خطاب الباحث مبنياً على تفكيك المصطلح وتتبع أنسجته الدقيقة وبنياته الصغرى. ومثل هذا التعامل في تقديم المصطلح يختص به خطاب الدغمومي عن الخطابات السابقة. ومرد ذلك في نظرنا إلى اعتبار المصطلح موضوعاً في البحث نفسه، واعتماد منهج تحليل الخطاب الذي صاغه من عدة مناهج. ومن شأن هذا المنهج، الذي يسعى إلى وصف لغته ولغة الموضوع، أن يتابع المصطلح ويحلله تفكيكياً وتركيبياً، ليتمكن من مواصلة عملية تحليل خطابه في علاقة تقاطعية بين امتدادات المصطلح في ذاته، من حيث عناصره المكونة له، وحقله الذي أنتجه، وامتداداته في خطاب نقد النقد الذي يشتغل فيه. إن التعامل العمودي والخطي مع المصطلح في خطاب نقد النقد من شأنه أن يخلق وعياً بالمصطلح وباللغة الواصفة عامة، وخاصة في مرحلة تأسيس لغة نقدية واصفة تسعى إلى تأطير الخطاب النقدي، مقابل لغة سطحية لا تكلف نفسها عناء المثاقفة أولاً، ولا عناء الوعي بذاتها. إلا أن ما نخافه على هذا النوع من التعامل مع المصطلح هو الإغراق في التفكيك

والتفريغ الدقيقي، الذي قد لا يجدي في سياق المصطلح. ونظن أن خطاب الدغمومي قد أثار من جانبه مسألة إعادة النظر في لغتنا النقدية، كما «مرتاح»، وقدّم لغة واصفة، من شأنها أن تصقل وتغتنى في الأبحاث المستقبلية.

أخيراً، يمكن أن نسجل بأن الأبحاث الثلاثة قد عبرت عن مدى وعيها بالمصطلح، حينما وقفت عنده بصورة متباينة، سواء بالتعريف بلغة المرجع الذي يرمي إلى تحديد المعنى أو الفكرة أو المفهوم الذي يحمله المصطلح، أو بالشرح المسهب بلغة صاحب الخطاب، التي تقوم على الوصف والتأويل، أو التقديم عن طريق العرض التاريخي المركز للمصطلح، لتحديد المسار الذي قطع حتى استقرّ على صورة من الصور، أو بالتفكيك للمصطلح بحثاً عن الإمساك بمكوناته الداخلية التي تنظمه وتشكله. كما أن الباحثين اعتمدوا على تقديمهم للمصطلح في المتن والهامش، كذلك، لتدارك ما فات الباحث تقديمه في المتن. ثم هناك صيغة أخيرة - وهي قليلة - هي الإحالة على مرجع المصطلح دون بسط تعريفه.

إن ما يثيره مثل هذا التعامل العلمي مع المصطلح هو الغاية المنهجية والعلمية والمعرفية. لا شك أن تقديم المصطلح هو من صميم الثقافة، بحيث يدرك الباحث بأنه يقدم مصطلحاً جديداً، في الغالب، يتطلب تكوين قارئ جديد أيضاً، لتحصل الاستجابة بين الخطاب والمتلقي. والطرق التي اعتمدها الأبحاث، في تنوعها وأهميتها، من شأنها أن تطرح علينا - لمن يريد تطويع المصطلح في خطاب النقد، وفي غير ذلك - مسؤولية وأهمية تقديم المصطلح من حقل أجنبي - غربي - إلى حقل عربي. إذ كلما سعينا إلى توضيح المصطلح وتبسيطه وتوضيحه منهجياً مقصوداً، عبر ذلك، أولاً، عن وعي صاحب الخطاب مقدم المصطلح بالمادة التي يقدمها، وحقق ثانياً، ذلك التعاقد الضمني الموجود بينه وبين القارئ. وبذلك تتأصل تقاليد عملية رصينة، تكون لها نتائج عملية مقنعة تواجه كل من يتصدى لها. ثم أن التوقف عند المصطلح في دقائق مكوناته وأصوله المرجعية، واستجلاء القصد منه لإزالة التباسه، أمرٌ ضروري وأساسي لخلق موسوعة جديدة في خطابنا، وفي تعاملنا مع المصطلح. إن هذه الغاية التي سارت فيها الأبحاث والقضايا التي أثارها، من شأنها أن تخلق قارئاً عربياً يتمكن في النهاية من مواصلة عملية القراءة، من فهم وتفسير وتأويل، والمشاركة أخيراً في إنتاج خطاب نقد النقد.

دمشق

الهوامش:

ص ٦٣-٦٤.

- (٣) خلدون الشمعة: «المنهج والمصطلح» منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٩، ص ٢٠١.
- (٤) د. عبد المالك مرتاض: «في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد»، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٤٠، ١٩٩٨.
- (٥) ادريس بلمليح: «الرؤية البيانية عند الجاحظ» دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٤.
- (٦) محمد الدغمومي: «النقد القصصي والروائي في المغرب من بداية الاستقلال الى سنة ١٩٨٠» دار الثقافة، المغرب،

١٩٨٧.